السنة الاولى

يحفظ الطالب جزأين ونصف الجزء بالاضافة الى ثلاثين حديثا عن تهذيب الاسلام لغريزة الجنس وجزاء الزناه فى الدنيا والآخرة .

السنة الثانية

يحفظ الطالب جزأين ونصف الجزء بالاضافة الى ثلاثين حديثا عن الحدود فى الاسلام وحد شارب الخمر ويلحق به بحث عن المخدرات .

السنة الثالثة

رابعـا : المرحلة الجامعية :

يحفظ الطالب فى كل سنة جزأين فقط ويدرس فى كل سنة جزءا من التاريخ الاسلامى . وهذا المنهج يطبق فى كل مراحل التعليم حتى التعليم الصناعى والزراعى والتجارى .

اذا توخينا هذا المنهج مع المناهج المقررة وسرنا على هذا الدرب اصبح كل فرد عنده من الدين ما يصلح امره ويقوم سلوكه ونجد الضمائر مستيقظة ويعمل كل فرد فى موقعه بجد وبدافع من عقيدته ويأبى الكسل ويأنف التسلق على اشلاء الغير او اكتافهم . ويحتقر نفسه ان قصر فهو يعمل كان الله يراه ويخاف من الله ان يتزلف لرؤسائه . فاذا كان كل امرئ فى المجتمع كذلك وصلوا بمجتمعهم الى قمة المجد وهابتهم الامم .

قبل فوت الاوان : -

لقد ظهرت الجماعات الاسلامية فى كل بلد وفى كل جامعة وهذا امر طبيعى لافتقار الناس الى تعليم الدين فيجدون فى انفسهم رغبة فى تعليم دينهم فيتجهون الى تلك الجماعات ليتعلموا شيئا عن دينهم ويحفظون كتاب ربهم . فلو طبق هذا المنهج وطبقت الشريعة الاسلاميه ما ظهرت هذه الجماعات فان الكل يعرف دينه ويحفظ القرآن . فان اغفلنا تعليم الدين فى المراحل التعليمية لعرضنا المجتمع المصرى فى السنوات القادمة لانهيار خلقى وفتنة يعلم الله عاقبتها .

تم بحمد الله

عقيدة التوحيد

وأثرها فى توجيه ضوابط السلوك

د/ محمد عبد الله عفيفى

استاذ مساعد بقسم الدراسات الاسلامية بجامعة الملك سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين، سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه اجمعين .

وبعـــد . .

تعد قضية « التوحيد ، واثرها فى توجيه ضوابط السلوك » من ضمن القضايا التى تستحق ان تطرح فى اكثر من ميدان ، وعلى اكثر من صعيد ، لما لها من اهمية خاصة ، من حيث كونها تعالج جانبا من تلك الجوانب التى تمس منهج الاسلام فى بناء الحياة ، التى توصف بالنهضة ، والتقدم والتحضر ، والرقى ، الا وهو الجانب السلوكى ، وضوابطه .

وقد طرح بعضهم على الساحة ، أن الاسلام عقيدة فقط ، واوامر خلقية مثالية لا صلة لها بالواقع ، محتجين فى هذا الراى ، بسلوك بعض ممن انفصلت العقيدة الاسلامية لديهم عن مناهج حياتهم ، بل عن آفاق تفكيرهم ، فى الوقت الذى فيه يحسبون ضمن راية الاسلام ، والواقع ان اصحاب هذا الرأى قد عكسوا القضية ، وقلبوا مفهومها رأسا على عقب ، فبدلا من ان يزنوا مسلك هؤلاء بميزان ضوابط السلوك الاسلامية ، ومـا تشتمل عليه من قيم ، ومفاهيم ، نراهم ينظرون الى الاسلام من خلال ما يقوم به اولئك الذين لم يلتزموا بما تهدى اليه مبادئه واتجاهاته ، واحـكامه ..

والنتيجة التى يصلون اليها من خلال هذه الرؤية ، ان الاسلام يغدو امامهم متمثلا فى الانماط السلوكية ، لهذه الفئات ، ثم يبنون على ذلك ، ما يشاءون من اوهام يحسبونها ، بل يعتقدونها حقائق ، ويذيعونها على الملأ ، بل فى المحافل التى يروق لها ان تعلن مثل هذه الاوهام ، وان تنتشر بين الدارسين ، فضلا عن غيرهم .

وواضح ان مآرب هؤلاء لا تخفى ، ومن ثم فانت تراهم قد عاودوا من جديد طرح قضايا قد مضى القول فيها ، واثارة مسائل قد اغلق الباب عليها ، وان كانوا ـ والحق يقال ـ قد اخذوا يغلفونها فى قوالب عصرية ، وتحت ستار واجهات ، او شعارات براقة ، كالنهضة ، والتقدم ، والرقى ، والاصالة ، والمعاصرة ، وحرية البحث . . . الخ .

وكان هؤلاء يريدون ان يضربوا عصفورين بحجر واحد ، حيث يحسبون ان لفيفا من الدارسين سوف يقف مدافعا عن الاسلام وبعضهم قد يكون اشد حنكة منهم ، واكثر قدرة على المواجهة ، اما الكثير منهم فسوف يسلقهم بالسنة حداد ، دون ان يقدم شيئا ذا بال ، وهؤلاء فى نظرهم يقفون فى خندق واحد ، او يلبسون عباءة واحدة ، ومن ثم فانهم يحاولون جاهدين ان يصوروهم على انهم - وهم المدافعون عن الاسلام - لا يجيدون غير الشتائم ، وكيل السباب ، فى الوقت الذى فيه يقفون ضد تيار النهضة والرقى . وهنا يبدو الاسلام مناهضا للرقى ، وحجر عثرة فى وجه التقدم علاوة على تزمت الدعاة اليه ، وانهم يعملون على وأد حرية الفكر ، ويصادرونها .. الخ . وهذا هو العصفور الاول .

اما الثانى : فهو التاكيد على معاداة الاسلام ، ولا اقول « التيار الاسلامى » والاستمرار على محاصرته فى كل معقل ، وفى كل مجال ، وفى كل ساحة .

ولعل هذه الدراسة المتواضعة تتناول جانبين مهمين فى هذا الصدد :

الاول : ايضاح بعض جوانب عقيدة التوحيد ، وبصفة خاصة « توحيد الالوهية » مع التركيز على اهمية هذا الجانب الاعتقادى لدى انسان القرن العشرين الذى غرق فى خضم التيارات المادية التى انهالت عليه من كل حدب ، وصوب .

والثانى : هو ربط هذا التوحيد بضوابط السلوك من وجهة العقيدة الاسلامية ، او بعبارة اخرى : اثر هذا الجانب من التوحيد فى تحديد ضوابط السلوك ، التى يعتد بها الاسلام ، والتى تعبر فى الواقع عن الحكم النهائى فى هذه القضية ، حيث ان هذا التوحيد ، ودلالاته انما جاء بـه العلم الالهى الذى يقضى بالحق ، ويقطع به الى ان تقوم الساعة .

والنتيجة التى تخلص اليها هذه الدراسة ، هى الانتقال فى مجال العقيدة الاسلامية من التجريد الى التطبيق ، ومن الفكر الى الواقع . وبهذا يتضح ان الاسلام ، او عقيدة الاسلام بمعنى اصح ، لا تكون ذات قيمة الا من خلال الواقع الحى المعاش ، كما يتضح ان المعايير او المفاهيم ، او الضوابط الاسلامية ، لا تفهم الا فى ضوء التجربة الواقعية ، اى ان

التوحيد فى الاسلام ليس فكرة تجريدية خالصة ، او نزعة مثالية راقية يسرح بها الفكر فى دنيا الخيال ، والاوهام ، وانما هو اتجاه واقعى يستجمع قوى النفس ، والعقل ، والروح ويهتدى بنور العلوم الالهية ، وحقائقها (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ولا شك ان هذا الاتجاه هو الذى يدعم الرقى ، ويرقى بالحضارة ، ويسمو بالانسان .

والآن ننتقل الى قضية ـ الايمان بالله » من حيث كونها المدخل الى عقيدة التوحيـد .

الايمـان بالله تعـالى :ـ

تعد قضية الايمان بالله تعالى من القضايا الاساسية للعقيدة الدينية فى الاسلام . وفى هذا الصدد لابد ان نسترشد بحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، والذى ورد فى الصحيحين . حيث يقول « عبد الله بن عمر رضى الله عنه : (ت : ٧٣ او ٧٤ هـ) (١)

ـ والرواية للامام مسلم (ت : ٢٦١ هـ) ـ « حدثنى ابى » « عمر بن الخطاب » ،

قـال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله علية وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه اثـر السفر ، لا يعرفه منا احد حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم فاسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ! اخبرنى عن الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال صدقت قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه . قال : فاخبرنى عن الايمان ، قال : ان تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فاخبرنى عن الاحسان ، قال : ان تعبد الله كانك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : فاخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها باعلم من السائل . قال : فاخبرنى عن اماراتها ، قال : ان تلد الامة ربتها ، وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاه يتطاولون

(١) انظر ، الطبقات الكبرى لابن سعد ، مج ٤/ ، دار بيروت . ص ١٨٧ .

فى البنيان . قال : ثم انطلق ، فلبثت مليا ، ثم قال لى يا عمر ! اتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله اعلم . قال : فانه جبريل آتاكم يعلمكم دينكم » (١) .

فهذا البيان النبوى الكريم ، يتحدث عن الاسلام ، والايمان ، والاحسان مبتدئا بالشهادتين ، ومنتهيا بمراقبة الله تعالى ، فانه يرانا ، وثمة احاديث اخرى ، نرى فيها شمول الاسلام لكل شىء ، واخرى فيها شمول الايمان ايضا ، والتفضيل فيها ليس هذا موضعه ، وان كانت كلها تختلف حسب الظروف ، التى يقال فيها : الاسلام ـ الايمان (٢) .

فطريتــه :

اذا كان الايمان بالله تعالى فطريا ، واذا كان معنى هذا ان الطبيعة التى خلق الله الانسان عليها ، والسجايا التى يتصف بها ، والامكانات التى زود بها ، والآفاق النفسية والعقلية التى تعد من خصائصه تقوده ـ حتما ـ بصفة تلقائية ، وطبيعية الى معرفة الله « الخالق » حيث ان الانسان قد ابدعه الصانع الخالق لكى يعبده ، وهذه الغاية لابد ان تكون ذات تأثير جوهرى على طبيعة ، وخصائص ، وقدرات ، وملكات وامكانات هذا المخلوق ، الذى اعد وخلق للعبادة .

ومعنى هذا كله ان معرفة الله الخالق ، تعد حقيقة ضرورية متسقة ، ومرتبطة ارتباطـا عضويا بأرقى الملكات الانسـانية ، ومتلائمـة مـع ادق واسمى المشاعر الانسانية ايضا ، شريطة ان تظل هذه وتلك ، فى معزل تام على عوامل الفساد والافساد ونائية عن طرائق التوجيه المضـاد ، وشريطة ان تحتفظ بنقائها وصفائها ـ اقول : اذا كان الامر كذلك ، فان فان عقيدة « الايمان بالله » فى حد ذاتها لا تكون بحاجة الى نصوص ، او وثائق من هنا او هناك ، فهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، كما ذكرنا من قبـل .

ومن ناحية اخرى فان الجانب الفطرى ـ وحده ـ لا يكفى فى تشكيل

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الايمان جـ ١ ص ١٤٤ ، المطبعة المصرية .

(٢) انظر ، فتاوى الرياض لابن تيمية ، مج الايمان الكبير ، والاوسط حيث افاض فى هذه القضية افاضة شافية .

او « تكوين » كل جوانب ، او « قواعد واسس » العقيدة الصحيحة . ومن ثم كان لابد من الرجوع الى الشرع المتمثل فى الكتاب والسنة الصحيحة الموثقة ، لتلقى « العلوم » او « الحقائق العلمية الدينية » المتعلقة بتلك القواعد ، والاسس ، يقول شارح الفقه الاكبر : « ثم العقائد يجب ان تؤخذ من الشرع الذى هو الاصل ، وان كانت مما يستقل فى العقل . والا فعلم اثبات الصانع ، وعلمه وقدرته ، لا تتوقف من حيث ذاتها على الكتاب والسنة ، ولكنها تتوقف عليهما من حيث الاعتداد بها ، لان هذه المباحث اذا لم يعتبر مطابقتها للكتاب والسنة كانت بمنزلة العلم الالهى للفلاسفة ، فحينئذ لا عبرة بها على ما ذكره المحققون » (١) .

مصادره وضوابطه :

ومعنى هذا الكلام ان « العقل الفطرى » او « الفطرة البشرية » لابد ان تعترف ضرورة وطبيعة بالله الخالق ، وتؤمن بوجوده ، الها خالقا ، مدبرا ، بيد ان هذا الاقرار او الاعتراف لابد ان يصحبه تصور معين لاسماء الا له ، ولما يتصف به من صفات . وهذا التصور لا يعد مقبولا الا اذا كان موافقا لما اخبر به الانبياء والرسل نقلا عن الله الخالق ، وتلقيا من وحيه سبحانه اليهم . ومن ثم فالتصور المتعلق بالله سبحانه ، وبصفاته لا يصح ان يترك الامر فيه الى الاحكام والتصورات العقلية ، لانها قد يجنح بها الشطط بعيدا عن حدود الحقيقة الواقعية الثابتة المتعلقة بذاته سبحانه وبصفاته . ومن اجل هذا ارسل الله الرسل ، وانزل الكتب ليوجه العقول الى الصواب ، وليصحح شططها فى الاعتقاد ، او بعبارة اخرى ليوضح لها كل جوانب الحقيقة الخاصة بالاعتقاد ، وليبين للناس الاعتقاد الصحيح فى الاله الخالق ، وليرشدهم الى المنهج الحقيقى الصائب المتعلق بالاعتقاد الموافق لما هو حق وواقع .

قال تعالى : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من من الكتاب » (المائدة : ٤٨) . ويقول الله تعالى بشأن القرآن الكريم :

---

(١) الامام ابو حنيفة ، الفقه الاكبر . وشرحه للامام ملا على القارىء ، مصر ، دار الكتب العربية ، بدون تاريخ ، ص ١٠ .

« **وبالحق انزلناه وبالحق نزل ، وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا** » (الاسراء ١٠٥) ويقول سبحانه معلما ومخبرا لنا عن احوال بعض الامم السابقة ، وعن مواقفهم الرافضة المتصلبة فى عناد تجاه من اصطفاهم الله ليكونوا رسله اليهم فى ابلاغهم بالحقيقة ، وتعريفهم بما وقعوا فيه من اخطاء فادحة لا تمت الى الحقيقة بصلة ، ولا تعبر عن الواقع بأى شكل من الاشكال ، وتعريفهم ايضا بما ينبغى لهم ان يعتقدوه ، ويقولوه ، ويسلكوه . « **ولقد استهزىء برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب . افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ، وجعلوا لله شركاء ، قل سموهم ام تنبئونه بما لا يعلم فى الارض (١) ام بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هـاد** » (الرعد : ٣٢ ـ ٣٣) .

يقول ابن كثير فى تفسير آية الاسراء السابقة (١٠٥) : « يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد ، انه بالحق نزل ، اى : متضمنا للحق ، كما قال تعالى : « **لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه** » (النساء : ١٦٦) ، اى متضمنا علم الله الذى اراد ان يطلعكم عليه ، من احكامه ، وامره ونهيه . وقوله : (**وبالحق نزل** » اى ووصل اليك ـ يا محمد ـ محفوظا محروسا ، لم يشب بغيره ، ولا زيد فيه ، ولا نقص منه ، بل وصل اليك بالحق ، فانه نزل به شديد القوى ، الامين المكين المطاع فى الملأ الاعلى) (٢) .

فابن كثير هنا يشير الى امرين جديرين بالاعتبار :

الاول : ان القرآن بما فيه من احكام ، وارشادات ، وتوجيهات ، ومواعظ ، واخبارات تتعلق بمصالح العباد ، وبمصائرهم ، انما يمدنا بالحقائق العلمية التى لا يمكن للبشر ان يصلوا اليها ، او يتمكنوا من الكشف عنها . ومصدر تلقى هذه الحقائق ، هو العلم الالهى الذى الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو اذن مصدر توفرت له ضمانات : الدقة ،

---

(١) اى مسموع لكنه باطل لا حقيقة له ، وظن لا اساس له (تفسير الطبرى ج ١٦ ص ٤٦٦ ، تحقيق محمود شاكر) .

(٢) تفسير ابن كثير ، مج / ٥ ط الشعب ، ص ١٢٥ .

والثقة ، والعلم بالخبايا وبمكنون الخفايا التى لا يقدر بشر ان يطلع او يصل اليها بجهده البشرى وحده ، ولكن لابد من العون الالهى كما يشاء سبحانه .

والامر الثانى : ان هذه الحقائق كانت بمعزل عن العبث ، وبعيدة عن التشويه ، فتوفرت لها كل الضمانات التى تؤكد ثباتها ، واصالتها ، وطهرها ، ونقائها ، ومن ثم حجيتها القاطعة ، ويقينها الاكيد الصارم .

وعلى هذا فالذى نود ان نصل اليه من خلال هذا الايضاح هو ان الكتب السماوية من حيث كونها المصدر الاوحد للعلم اليقينى الثابت الصحيح المتعلق بالاسرار الكبرى فى الكون ، وكذلك اخبارات الانبياء الصحيحة الموثقة ، من حيث كونهم لا ينطقون عن الهوى ، تعد الفيصل فى كل تصور عقلى بشرى ، مهما كانت منزلة صاحبه .

ولا ادل على هذا من ان القرآن ، وهو الكتاب السماوى الاوحد الذى بقى صحيحا تماما — كما ذكرنا — يصحح العقائد الباطلة ، ويضع نصب اعيننا بعض الانحرافات البشرية ، كما رأينا فى النموذج القرآنى الذى قرأناه من سورة الرعد . يقول الامام الطبرى فى تاويل الآيتين السالفتين : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، ان يستهزىء هؤلاء المشركون من قومك ، ويطلبوا منك الآيات تكذيبا منهم لما جئتهم به ، فاصبر على اذاهم لك ، وامض لامر ربك فى انذارهم والاعذار اليهم ، فلقد استهزأت امم من قبلك قد خلت فمضت ، برسلى ، فأطلت لهم فى المهل ، ومددت لهم فى الاجل ، ثم احللت بهم عذابى ونقمتى حين تمادوا فى غيهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابى اياهم حين عاقبتهم ، الم اذقهم اليم العذاب ، واجعلهم عبرة لاولى الالباب) ؟ (١) . هذا فى الآية الاولى . ويقول فى تاويل الثانية : (يقول تعالى ذكره : افالرب الذى هو دائم لا يبيد ولا يهلك ، قائم بحفظ ارزاق جميع الخلق ضامن لها ، عالم بهم ، وبما يكسبونه من الاعمال ، رقيب عليهم لا يغرب عنه شيء اينما كانوا ، كمن هو هالك ، بائد لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم شيئا ، ولا يدفع عن نفسه ، وعمن يعبده ضرا ، ولا يجلب اليهما

---

(١) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود شاكر ، ج ١٦ ، ص ٤٦٠ — ٤٦١ .

نفعا ، كلاهما سواء ٠٠) (١) ٠

ومع ان الله هو الخالق ، الرازق لجميع من فى الكون ، يستوى فى ذلك المشركون وغيرهم ، وهو سبحانه ، المدبر امورهم ، « والحافظ عليهم اعمالهم (٢) مع هذا فقد جعلوا لله شركاء من خلقه ، يعبدونها من دونه٠ فقال الله تعالى : « قل لهم يا محمد : سموا هؤلاء الذين اشركتموهم فى عبادة الله ، فانهم ان قالوا : آلهة ، فقد كذبوا ، لانه لا اله الا الواحد القهار لا شريك له ٠ « ام تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض » ، يقول : اتخبرونه بان فى الارض الها ، ولا اله غيره فى الارض ولا فى السماء ؟) (١) ٠ وهكذا نجد ان القرآن الكريم — وهو كلام الله — يبين لنا ان مرد جميع القضايا ، والافكار الى ما فيه من حقائق فاصلة ، والى ما اخبر به الرسول ، وثبت عنه وصح منه ٠ من بيان كاشف ، وايضاح قاطع الحجة والدلالة ٠ « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (الحشر : ٧) ٠ «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (النساء : ٦٥) « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (النساء : ٥٩) ٠

(وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب « الحجة » باسناد صحيح ٠

ومع ان ابن رجب قد استبعد صحة هذا الحديث ، الا ان « معناه صحيح قطعا ، وان لم يصح اسناده ٠ واصله فى القرآن الكريم كثير « كقوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله امرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (الاحزاب : ٣٨) وقوله « فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم » (القصص : ٥١) (٣) ٠

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٦٢ وانظر ص ٤٦٣ — ٤٦٤ ٠

(٢) نفسه ، ص ٤٦٥ ٠

(٣) نفسه ، ص ٤٦٥ ٠

الايمان والتوحيـد :

واساس قضية الايمان بالله ، هو فكرة « التوحيد » • وقضية التوحيد تتطلب منا ان نعالجها من جوانب عدة ، منها : ان نتبين معنى التوحيد •

ـ وان نلمح الى ما ينقله الدارسون فى معاهد العلم من تسمية هذا الفرع من الدراسة بـ « علم التوحيد » وما يسميه به بعضهم من اسماء اخـــرى •

ـ ومنها ان نتناول اقسام هذا التوحيد ، او جوانبه التى درج عليها الباحثون فى هذا المجال •

ـ ومن خلال ذلك كله فسوف نستعرض بعض القضايا التى تطرح على الساحة ، والتى يحاول بعضهم من خلالها ان ينعتوا المستمسكين بمنهج اهل السنة بالجمود العقلى ، او الفكرى ، بيد اننا سوف نقترب من هذا المنهج ، ونحاول ان نبين ملامحه ، ونناقش امثال هذه التهم باذن الله •

معنى التوحيد ، وعلم التوحيد :

ومعنى التوحيد ، الاقرار بأنه وحده ـ سبحانه ـ الخالق المدبـر لكل امور عباده ، ولامور جميع العالمين ، « والبراءة من عبادة كل ما سوى الله والاقبال بالقلب والعبادة على الله ، وذلك هو معنى الايمان بالله ، وهو معنى « **لا اله الا الله** » (١) • ويشير القرآن الكريم الى هذه الحقيقة الحيوية فى كل سورة بما يقطع بأن هذه القضية تعد لب عقيدة الايمان فى الافق الاسلامى • ومن ذلك قوله تعالى : « **والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم** » (البقرة : ١٦٤ • وقوله تعالى حكاية عن مؤمن (يس) « **ومالى لا أعبد الذى فطرنى ، واليه ترجعون • أأتخذ من دونه آلهة ان ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ، ولا ينقذون • انى اذا لفى ضلال مبين** » سورة يس : ٢٢ ـ ٢٥ •

والآية الاولى تتضمن اخبارا الهيا بأنه لا اله غيره • وهذا الاخبار يكشف عن حقيقة واقعية بلغت اقصى درجات الوثاقة ، واسمى مراتب

---

(٢) الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب ، تيسير العزيز الحميد ، فى شرح كتاب التوحيد ، ط ٤/ ١٤٠٠ هـ ، ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ •

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٠ •

العلم . فهذا من علم الغيب ، الذى لا يتيسر لبشر ان يصل اليه ، كما لا يحق لبشر ان يجادل فيه ، او يمارى فى صحته . ومن ثم وجدنا حكاية القرآن الكريم عن مؤمن سورة يس ، سورة (يس : ٢٣ - ٢٥) . توضح لنا ان عقيدة الايمان لديه قد قامت على مسلمات واقعية منها : انه سبحانه وحده هو الخالق (الذى فطرنى) . وانه سبحانه اليه المصير ، وانه - وحـده - المتصرف فى شئون خلقه ، فمن اراده بضر لا يملك احد ان يخلصه منه مهما كانت قوته . ولهذا فلابد ان يعبده وحده دون غيره . . ولهذا فقد عقب على هذه المقدمات والمسلمات الواضحات ، بانه اذا لم يؤمن حسبما تقتضيه تلك الحقائق فسوف يكون ضالا ضلالا مبينا . وسبب هذا الضلال انه - فى هذه الحالة - يكون قد اعرض عن الحقائق والعلوم الحقيقية ، واتبع الخيالات والاوهام التى لا حقيقة لها . وهل بعد هذا الضلال الواضح من ضـلال ؟ ! .

ومن اجل هذا سمى موضوع العقيدة بعلم التوحيد ، يقول الامام محمد عبده (التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب ان يثبت له من صفات ، وما يجب أن يوصف به ، وما يجب ان ينفى عنه ، وعن الرسل لاثبات رسالتهم ، وما يكونوا عليه ، وما يجوز ان ينسب اليهم ، ومـا يمتنع ان يلحق بهم) (١) . وهذا التعريف يشير الى بعض الموضوعات التى تعالج فى اطار قضية التوحيد . ولذلك يقول : (اصل معنى التوحيد: اعتقاد ان الله واحد لا شريك له ، وسمى هذا العلم به تسمية لـه باهـم اجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الاكوان ، وانه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى كل قصد ، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز) (٢) . وقد جاء فى صحيح مسلم « عن ابن مالك الاشجعى ، عن ابيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من قال لا اله الا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ، ودمه ، وحسابه على الله) (٣) .

---

(١) الشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد . مصر . دار المعارف . ط ٥/ ، ١٩٧٧ ، ص ٢١ .

(٢) نفسه ، ص ٢١ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ، ص ١٤٠ .

ويشير التهاونوى الى ان هذا العلم يسمى بعلم الكلام ، ويسمى بعلم اصول الدين · كما يسمى بالفقه الاكبر ايضا ، وبعضهم يسميه بعلم النظر والاستدلال · يقول التهانوى : (علم الكلام ، ويسمى بأصول الدين ايضا · وسماه « ابو حنيفة » رحمه الله تعالى : بالفقه الاكبر · ويسمى بعلم النظر والاستدلال ايضا · ويسمى ايضا بعلم التوحيد والصفات · وفى شرح العقائد للتفتازانى : العلم المتعلق بالاحكام الشرعية ، اى العملية ، يسمى : علم الشرائع والاحكام · وبالاحكام الاصلية اى الاعتقادية يسمى : علم التوحيد والصفات) (١) ·

وقد كان لعلماء السلف ، او اهل السنة والجماعة موقف معروف من علم الكلام ، وطرائق المتكلمين التى لا يمكن ان تكون ذات تاثير حاسم فى الحفاظ على العقيدة ، او الدفاع عنها ، حيث أن المناهج العقلية التى كان يتبعها المتكلمون ، والقضايا العقلية التى كانوا يديرون حولها نقاشهم لم تكن شافية للصدور ، او مبرئة من الشكوك ، او مخلصة من ايراد الشبة والاعتراضات ، ذلك ان هذه وتلك لا تخرج عن كونها مباحث او اجتهادات تقوم الغلبة فيها للصناعة العقلية ، وعسير ان يحرز عقل بشرى الانتصار الكامل على عقل بشرى آخر · ولذلك يقول السيوطى : (اعلم ان ائمة اهل السنة ما زالوا يصنفون الكتب فى ذم علم الكلام ، والانكار على متعاطيه · واجل كتاب الف فى ذلك « ذم الكلام ، واهله » لشيخ الاسلام ابى اسماعيل الهروى · وهو كله مخرج بالاسانيد ، وانا الخص هنا جميع مقاصده تلخيصا حسنا · قال : - اى شيخ الاسلام الهروى - اما بعد ، فان هذه الامة لم يؤتوا فى دينها من شىء ما اوتوا فيه من قبل التكلف ، والجدال ، وهما داءا الامم السالفة ، ولم ياتيا بخير قط ، وكتاب الله انهى شىء عنهما ، والرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم اكره الخلق

---

(١) الشيخ المولوى ، محمد اعلى بن على التهانوى ، كشاف اصطلاحات الفنون · بيروت ، شركة خياط للكتب والنشر · سنة ١٩٦٦ ، ص ٢٢ ، انظر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة ، الفلسفة الاسلامية ، مصر · لجنة التاليف والترجمة ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ·

لهمـــا (١) .

وهذا امام المتكلمين « فخر الدين الرازى » يعترف بان الرحلة التى قطعها مع علم الكلام ، ومباحثه العويصة لم تسفر عن شىء ذى بال ، يقول : « ولقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لانه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق فى ايراد المعارضات والمناقضات ، وما ذلك الا للعلم بان العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة ، والمناهج الخفية » (٢) . وهكذا نجد ان علم الكلام لم يلق قبولا حسنا فى البيئة الاسلامية ـ وسوف نعالج هذه القضية فيما بعد ـ ولكن الذى ينبغى ان نشير اليه هنا ، هو العلاقة بين هذه المسميات المختلفة التى تضمها موضوعات العقيدة الاسلامية .

العلاقة بين هذه المصطلحات :

لقد اشرنا فيا سلف الى ان تسمية هذا العلم بعلم التوحيد ، ترجع الى ان اهم المباحث فيه على الاطلاق ، هو مبحث التوحيد ، الذى يعد البداية الاساسية التى تنطلق منها قضية الايمان . وقد كانت هذه هـى رسالات الانبياء جميعا الى بنى البشر . اما دوافع تسميته بعلم الكلام ، فقد تعددت الآراء حولها ، فيشير الايجى الى ان هذه التسمية قد تكون راجعة الى التمييز بينه وبين « المنطق » لدى الفلاسفة ، او راجعة الى ابوابه التى كانت تعنون بالكلام فى كذا ، او الى ان مسألة « الكلام » كانت اشهر موضوعاته ، او لكونه يورث القدرة على الكلام مع المخاصمين (٣) ولكن الشيخ مصطفى عبد الرازق ، يذكر انه يبدو له « ان البحث فى امور العقائد كان يسمى كلاما قبل تدوين هذا العلم ، وكان يسمى اهل

---

(١) جلال الدين السيوطى ، صون المنطق والكلام عن فـن المنطق والكـلام تعليق د . على سامى النشار . بيروت . دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ ص ٣٣ ومـا بعدهـا .

(٢) محمد بن ابراهيم الوزير ، الروض الباسم فى الذب عن سنة ابى القاسم . مصر . درة الطباعة المنيرية . بدون تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٣) الشيخ مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢٦٥ ، نقلا عن كتاب « المواقف » لعضد الدين الايجى .

البحث متكلمين . فلما دونت الدواوين ، والفت الكتب فى هذه المسائل اطلق على هذا العلم المدون ، ما كان لقبا لهذه الابحاث قبل تدوينها ، وعلما على المتعرضين لهـا » (١) . ثـم يشير الى ان هـذه التسمية « بالكلام » تعود الى احد احتمالين :

الاول : ان هؤلاء الخائضين فى هذا المجال المتعلق بالعقيدة ومسائلها انما تكلموا حيث كان يتعين عليهم السكوت ، حسما للفتنة ، وسدا لابوابها ويؤيد ذلك ما ذكره السيوطى فى كتابه « صون المنطق والكلام » من ان « سفيان الثورى » كان (يبغض اهل الاهواء وينهى عن مجالستهم اشد النهى ، وكان يقول : عليكم بالاثر ، واياكم والكلام فى ذات الله) (٢) . وروى ايضا عن (محمد بن الحسن صاحب ابى حنيفة ، قال : قال ابو حنيفة : لعن الله عمرو بن عبيد ، فانه فتح للناس الطريق الى الكلام فيما لا يعنيهم من الكـلام . قـال : وكان ابو حنيفة يحثنا على الفقـه ، وينهانا عن الكـلام) (٣) .

والاحتمال الثانى : ان الكلام فى مجال العقيدة كان مقتصرا على الجانب النظـرى وكان غير دال على الفعل او العمل ، ومن ثـم كان المتكلمون يدورون فى ابحاثهم حول مسائل نظرية بحتة لا تتعلق بالفعل ، ويؤيد هذا الاحتمال ما روى عن ابى حنيفة رضى الله عنه اذ قال : « الفقه فى الدين افضل من الفقه فى العلم » (٤) . وكذلك روى « عن مصعب بن عبد الله الزبيرى ، قال : كان مالك بن انس يقول : الكلام فى الدين اكرهه ولم يزل اهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه » (٥) .

واذا كان الشيخ مصطفى الرازق يرجح هذين الاحتمالين ، فاننا يمكن ان نستنتج سببا ذا اهمية خاصة يكمن وراء تلك التسمية ووراء موقف اهل السنة من علم الكلام ، وهو ان هذه اللفظة نفسها تحمل فى دلالتها معانى التفوق ، والخوض فيما لا ينبغى . وذلك فى المجال الدينى ، كما ذكره

---

(١) نفسه ، ص ٢٦٥ .
(٢) نفسه ، ص ٢٦٧ .
(٣) نفسه ، ص ٢٧٦ .
(٤) نفسه ، ص ٢٦٨ .
(٥) نفسه ، ص ٢٦٧ .

« شيخ الاسلام الهروى فى كتابه « ذم الكلام » اخرج عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يكفر بالله جهارا ، وذلك عند كلامهم فى ربهم » . « واخرج عن عمر بن الخطاب ، قال : ان حديثكم شر الحديث ، وان كلامكم شرار الكلام . انكم قد حدثتم الناس حتى قيل : قال فلان ، فترك كتاب الله ، فمن كان قائما فليقم فى كتاب الله والا فليجلس » (١) .

ومن ثم كانت التسمية بعلم الكلام تحمل بين طياتها هذين المعنيين اللذين اشار اليهما الشيخ مصطفى عبد الرازق ، بالاضافة الى دلالة الاثم ، والمخالفة ، والخروج عما ينبغى ، ومن ثم كان النفور منها ، والاعراض عنها . وقد كان خوض المتكلمين فى مسائل العقيدة التى تعد من موضوعات « علم التوحيد » . ولذلك اطلق بعضهم على هذا العلم ، مصطلح « علم الكـــلام » .

اما تسميته بعلم « النظر والكلام » فذلك راجع الى المناهج النظرية التى كان يصطنعهـا المتكلمون فى مجالاتهم حـول مســائل العقيدة ، وقضاياها . ولذلك يعرف ابن خلدون علم الكلام بقوله : « علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية ، بالادلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف واهل السنة » (٢) .

واما تسميته بعلم اصول الدين ، فواضح ان البحث فى مسائل العقيدة يعد من اهم المباحث المتعلقة بأصول الدين ، ومن اجل هذا سماه ابو حنيفة بالفقه الاكبر . وهكذا اتضح لنا ان قضية « التوحيد » هى لب العقيدة الدينية ، ومحور الارتكاز فيها منذ آدم والى ان يرث الله الارض ومن عليها كما كانت هذه العقيدة محور رسالات الانبياء جميعا الى بنى البشر حتى خاتم الانبياء والرسل سيدنا محمد صــلى الله عليه وسلم . وآيــات

---

(١) السيوطى ، صون المنطق والكلام ، ص ٤٧ ـ ٤٩ ، انظر : التمهيد ، للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٢٦٦ ، د . يحى هاشم فرغل ، نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ، مصر . مجمع البحوث الاسلامية ، ١٣٩١ هـ ١٩٧٢ م ، ص ١٤ .

(٢) التمهيد ، ص ٢٦١ ، نقلا عن المقدمة .

القرآن الكريم حافلة بما يدل على هذه الحقيقة ، ويؤكد على ابلاغها للعالمين فى كل زمان ومكان . ومن ذلك قوله تعالى « **ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** » (النحل : ٣٦) . ومنها قوله تعالى : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** . . الآية » (الشورى : ١٣) .

فالتوحيد ـ اذا ـ يعد « اول دعوة الرسل ، واول منازل الطريق ، واول مقام يقوم فيه السالك الى الله عز وجل » ويعد ايضا « اول ما يدخل به فى الاسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا » كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : (من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة) (١) . وهو اول واجب وآخر واجب) (٢) . وثمة احاديث عديدة تشير الى أهمية التوحيد ومنزلته من قضية الايمان او العقيدة . ومنها ـ على سبيل المثال ـ قوله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم ان لا اله الا الله دخل الجنة » (٣) وقوله : « ان الله حرم على النار من قال لا اله الا الله » (٤) .

اقسام التوحيد

يشير اهل السنة والجماعة الى ان عقيدة التوحيد تعنى : انه هو وحده الخالق لكل ما فى الكون . وان كل ما سواه سبحانه مخلوق له وحده وهذا هو معنى الربوبية . كما تعنى : انه سبحانه هو المستحق للعبادة ، والخضوع دون سواه . فهو سبحانه الملاذ ، والملجأ ، وهو وحده الذى ينبغى ان يتوجه اليه الناس ، كل الناس ، فى كل خلجة من خلجات

(١) قال الشيخ الالبانى : (حديث حسن او صحيح . رواه الحاكم وغيره . وقد خرجته فى ارواء الغليل) . شرح العقيدة الطحاوية ، نشر المكتب الاسلامى ط / ٤ . ١٣٩١ هـ ، م . ص / ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب العلم بـ ٤٩ ومسلم فى كتاب الايمان . ورواه الترمذى والامام احمد فى مسنده .

(٤) روه البخارى فى كتاب الصلاة ب ٤٩ ، وكتاب التهجد ، ب ٣٦ ، وفى مواضع اخرى ، ومسلم فى كتاب الايمان وغيره . انظر تخريج الحديثين فى مفتاح كنوز السنة ، ص ١٠٤ مادة (التوحيد) .

نفوسهم ، وفى كل موقف من مواقف العقل والفكر ، وفى كل حالة من حالات اليأس ، والمحنة ، وفى كل حالة من حالات الرخاء واليسر والنعمة ، منه وحده يطلب العون ، والنصر ، ويطلب التوجيه ، والارشاد ومنه تستمد الهداية ، والمعرفة . وهذا هو معنى الالوهية .

فاذا كان الله وحده هو الخالق ، المتفرد بالرزق ، والاعطاء والمنع ، فهو اذن يكون محط آمال الداعين ، وملتقى رجاء الطالبين ، واذا كان الله وحده هو مسبب الاسباب ، ومكون الاحداث ، فلا مناص من الالتجاء اليه وحده دون سواه ، والرجوع اليه وحده دون غيره . كما انه لا يقبل عقلا ، ولا واقعا ان يشرك معه غيره فى ايجاد الاسباب ، واجراء الاحداث وايقاع الحوادث . فهو المتصف بصفات الجلال والكمال ، وهو المنزه عن صفات النقص .

ومن اجل هذا قسم السلف التوحيد الى ثلاثة اقسام : توحيد الربوبية ، وتوحيد الالوهية ، وتوحيد الاسماء والصفات . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

(لما كان ـ الله سبحانه ـ هو الاول الذى خلق الكائنات ، والآخر الذى اليه تصير الحادثات ، فهو الاصل الجامع فالعلم به اصل كل علم ، وجامعه ، وذكره اصل كل كلام وجامعه ، والعمل له اصل كل عمل وجامعه وليس للخلق صلاح الا فى معرفة ربهم وعبادته ، واذا حصل لهم ذلك ، فما سواه اما فضل نافع ، واما فضول غير نافعة ، واما امر مضر . ثم من العلم به تتشعب انواع العلوم ، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة . والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ الى ركن وثيق ، واعتصم بالدليل الهادى ، والبرهان الوثيق ، فلا يزال اما فى زيادة العلم والايمان ، واما فى السلامة عن الجهل والكفر) (١) .

وابن تيمية يقرر هنا ان ثمة حقائق ثابتة ، وجوهرية ينبغى ان تكون فى حسبان كل انسان ، فضلا عن ان يكون مسلما . ومن هذه الحقائق ما يلى : ـ

ـ ان الله سبحانه هو خالق الكائنات ، واليه وحده ينتهى مصيرها .

---

(١) فتاوى شيخ الاسلام ، مج / ٢ ، ص ١٦ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٧٦ .

- ان العلم بالله اصل لكل العلوم ، وجامع لها . وهذا يؤكد ما نردده دائما أن جميع العلوم التجريبية ، والانسانية لابد ان تقود الى معرفة الله الخالق والى التعمق فى هذه المعرفة ، كما يؤكد ايضا ان مفكرى الاسلام الخلص لم يدر بخلدهم ان ثمة تعارضا بين الدين والعلم ، كما انهم لم يقبلوا التفرقة المصطنعة بينهما .

- ان ذكر الله ينبغى ان يكون محور كل كلام ، ومعيار كل حديث .

- ان توفر الغايات النبيلة والاهداف الخلقية السابقة ، والدوافع الانسانية الرفيعة لابد ان يكون اساس كل عمل انسانى فى اى موقع من المواقع ، وهذا من شأنه ان يجعل الجزاء المادى او الادبى على هذا العمل او ذاك انما يطلب فى الدرجة الاولى من الاله الخالق العليم ببواطن الامور ، وبخفايا الاسرار والنوايا .

كما يقرر ان جميع الاهداف ، والغايات لابد ان تتوجه فى النهاية الى الله ، وهذا التوجه لا يمكن ان يكون قيدا عليها ، - كما قد يتصوره بعضهم من دعاة الحرية الاباحية - بل انه يعد حسب الواقع والتجربة ضمان سلامتها وصمام نقاوتها ، ودليلا امينا لتوقيها مزالق الانحراف ، وتجنبها الوقوع فى حمأة المهالك ، ومن ثم فهذا التوجه يصون الحرية ولا يفرط فيها ، ويحفظها ولا يضيعها ، ويقويها ولا يوهنها .

ومن اجل هذا يكون الرجوع الى الله ، وعبادته وحده ، والاستعانة به من اهم الضمانات الضرورية لسلامة الفكر ، ونقاء العقل ، وصواب الحكم ، ودقة التقدير او كما يقول ابن تيمية : (والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك ، قد لجأ الى ركن وثيق ، واعتصم بالدليل الهادى ، والبرهان الوثيق ، فلا يزال اما فى زيادة العلم والايمان ، واما فى السلامة عن الجهل والكفر) . ولهذا كان الامام « احمد بن حنبل » رحمه الله يعلم بعض اصحابه ان يدعو قائلا : (يا دليل الحيارى ، دلنى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين » (١) .

* * *

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٧ ، ص ١٨ .